

استقراء التنظيم السياسي من خلال التشريع القانوني - أشنونا انموذجاً -

بحث منشور في دوار مؤتمر كلية التربية للعلوم الانسانية ٢٠١٣

أ.م.د. طلال حامد خليل

المقدمة

اشتهرت بلاد الرافدين بالتشريع القانوني الذي يعد من أقدم ما عرف حتى الآن، إذ لم تصلنا أي مجموعة قانونية تسبقها في التاريخ، ولان أشير الى شرائع وقوانين العراق القديم بأنها أولى جهود البشر في تنظيم الحياة الاجتماعية وفق قواعد وأصول معينة، فان أهل العراق أنفسهم كانوا يعدون الالهة مصدراً لهذه الشرائع. والواقع انه بلغت من الكمال حداً يدفعنا الى القول بأنها ثمرة جهد وتفكير يستحقان الإعجاب والتقدير.

لقد كانت النظرة القانونية لأهل الرافدين علامة ثابتة مميزة لمنحاهم في التفكير خلفت طابعها على جميع صور حياتهم الاجتماعية، فثمة ميل طبيعي الى التمييز والتقنين يكمن وراء النظام التشريعي الضخم الذي نهضت به الحضارة العراقية القديمة، والذي كان بدوره إحدى الوسائل الأساسية التي امتدت بها تلك الحضارة إلى البلاد المجاورة .

وبعد هذا البحث محاولة للاستفادة من التشريع القانوني لاستقراء التنظيم السياسي الذي لم ينل قسطاً من البحث يتناسب وحجمه وأهميته .

أهمية البحث

لعل من أكثر المناطق التي تم التعنيم عليها لدى الدارسين في فرع الفكر السياسي كأحد فروع علم السياسة ، هو ذلك النتاج الثر لحضارة وادي الرافدين التي سبقت الحضارة اليونانية بقرون عديدة ، فيكاد يجمع الكتاب والمؤلفون في هذا الفرع على أن الحضارة اليونانية كانت السبابة في معرفة التنظيم السياسي كدولة وسلطة ، لذا يقع على الباحث مهمة إظهار المعرفة السياسية التي عرفتتها الحضارات الأخرى ، وقد تكون الإحاطة بها جميعاً أمر يتعسر على الباحث في بحث محدود لذا حاولنا

في هذا البحث أن نبين التنظيم السياسي للمملكة اشنونا ، من خلال الاستقراء لبعض القوانين المنظمة للحياة فيها ، فمن المعروف أن أي تشريع قانوني لا يأتي من فراغ ولكنه انعكاس للبيئة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أوجبت ذلك التشريع ، إذ بدراسة التشريع القانوني نتعرف على أحوال الأمم والشعوب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فضلا عن السياسية، وبها ندخل إلى عمق المجتمع وننفذ إلى تفاصيل حياته اليومية بما تعكسه من قيم أخلاقية وأعراف اجتماعية ونظم سياسية ، فنواصل مع كيفية إدارة المعاملات وتسييرها، وظروف تسوية الخلافات والنزاعات، ووسائل تنظيم السلوك الاجتماعي وبها نفتح على نظم ومؤسسات سياسية ما كانت لتثير كثير من الاهتمام إلا من خلال دراستها بوصف تركيبي وتخليقية تحليلية .

فرضية البحث

يحاول البحث في محاوره الإجابة على مجموعة من التساؤلات مفادها ، هل عرفت حضارة وادي الرافدين تنظيما سياسيا في دول مدنها ؟ وما هي الشرعية التي تم إسباغها لرضا المحكوم على الحاكم ؟ وما هي أهم المؤسسات السياسية التي انتظمت لتسيير العملية السياسية ، وما الغرض من التقنين وبماذا يخدم النظام السياسي ؟

هيكلية البحث

تم تقسيم البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة ، ففي المبحث الأول حاولنا بيان طبيعة المجتمع وتقسيمه الطبقي في مملكة اشنونا ، وكرسنا المبحث الثاني لقراءة التنظيم السياسي ومؤسساته ، والمسؤولية التي تقع على عاتق كل مؤسسة بما يوضح التنظيم الدقيق للمهام المناطة بكل مؤسسة ، وفي خاتمة البحث تم وضع الاستنتاجات التي تمثل مخرجات البحث ، آمليين أن نكون قد وفقنا في بيان الهدف من البحث .

والله ولي العون والتوفيق

المبحث الأول طبقات المجتمع في اشنونا

لقد كانت المدن الصغيرة في العراق القديم قد اتسعت وازداد عدد سكانها ، وشاع التخصص في العمل وتطورت الحياة سريعا وكبيرا عما كانت عليه في عصور ما قبل التاريخ ، ومن نتائج ذلك كله أن تطورت الحياة اليومية وتعقدت وتشابكت علاقات الأفراد بعضهم البعض واستقرت العادات والتقاليد وغدت أعرافا يسير عليها أفراد المجتمع وتبلورت في قوانين مدونة صادرة عن السلطة الحاكمة فكانت الأحوال الشخصية التي شملت الزواج والطلاق والتبني والإرث والخيانة الزوجية وحقوق الوالدين وغيرها من العلاقات الأسرية التي أصبح لها نصيب كبير في تلك القوانين ، وكان هناك مئات بل الآلاف من النصوص لا سيما في العهد البابلي القديم والتي عالجت الأحوال الشخصية وأمكن من خلالها وضع صورة عن المجتمع والحياة الاجتماعية في العراق القديم الذي كان على درجة كبيرة من التعقيد والتنظيم ، وكانت القوانين التي طبقها المجتمع في مملكة اشنونا تفوق في بعض مبادئها وأحكامها ما طبقة العديد من المجتمعات القديمة المتطورة المعروفة كالمجتمع اليوناني والروماني إلا انه يمكن القول أن ما جاء في قوانين ووثائق وفي مقدمتها قانون اشنونا من مبادئ وأحكام وقواعد قانونية يمكن أن تؤخذ على أنها الصورة العامة لما كان عليه المجتمع في عصوره القديمة المختلفة .

ولفهم طبيعة التنظيم السياسي في مملكة اشنونا لا بد من التعرف على طبيعة المجتمع وتقسيماته ، على الرغم من وجه التكلف في بحث للوصف التركيبي من النوع الذي سنحاوله هنا ، لكن مثل هذا المسعى ضروريا لفهم موضوع بحثنا ، فوصف مجتمع اشنونا سنحلله في ضوء استقراءنا للقوانين التي أنتجتها عقلية المشرع التي لا تأتي من فراغ وإنما تتصل اتصالا مباشرا بطبيعة المجتمع وتقسيماته ، ومن نافلة القول ، فان ما نقوم به هو بناء تخيلية بمساعدة نصوص تعبر عن الأحداث التي تناولها أو التي اتجهت صوبها ، وطلبا لمزيد من الوضوح في معرفة التنظيم

السياسي الذي ينبثق من المجتمع ، مما يدفع بمهمة التعرف على المجتمع في
اشنونا كتمهيد للإحاطة بتنظيمها السياسي .

كان الاعتقاد السائد لدى العديد من الحضارات في العصر القديم بان الحاضرة أو ما
اصطلح على تسميتها بـ (دولة المدينة) هبة من الآلهة تميز شعب من الشعوب
عن القبائل البدائية ، أو هي عطية (كالقمح) وليست مجرد تجمع مدني ، إنها
تنظيم اجتماعي موحد داخل ارض غير محددة المعالم فهي تصغر وتكبر حسب
ضعف الدولة وقوتها ، حتى أصبحت نقطة التوازن بحيث باتت في أعين العراقيون
القدامى وكأنها الصيغة التي تنال من خلالها المواطنة ، فقد كانت قادرة على تحدي
المزاحمات من اجل التوسع لصالح المواطن وإشباع حاجاته^(١)

إن مما يلفت النظر هو سيطرة الحاضرة ذاتها على المواطنين مهما كان شكلها
ونظامها ، فقد كان المواطن يؤمن قبل كل شيء بأنه مواطن ، وان آلهة الحاضرة هم
حماتها والوازع الديني هو الركن الأساس في شد المواطن وإخلاصه لدولته أو
حاضرتة ، وتقدم الممالك التي تكونت فيما بين النهرين ومنها مملكة اشنونا الأمثلة
، فقد كان تطور العبادات الزراعية^(٢) ، ولم شتات التجمعات البشرية تحت قيادة
واحدة بدوافع أمنية واقتصادية العامل الحاسم في تكون دول المدن ، فامنيا ، كانت
القوة الدفاعية لمجموع الشعب أفضل من قوة تجمع لوحده خصوصا بعد الهجمات
التي كانت تشنها القبائل الواحدة على الأخرى فكان تحقيق الأمن هاجس يعزز من
تكوين التجمعات الكبرى ، واقتصاديا ، لان التجمع البشري الأكبر أكثر قدرة على

(١) جان توشار ، وآخرون ، تاريخ الفكر السياسي ، ترجمة علي مقلد ، بيروت ، الدار العالمية للنشر والتوزيع ،
٢٠٠٥ ، ص ١١

(٢) من المعلوم أن العراقيين القدماء بكل مسمياتهم (سومريون وبابليون وأشوريون)، كان يعتقدون نفس الدين،
والذي يقوم على أساس (تقديس عملية الإخصاب في الطبيعة) والمرتبطة بعبادة الآلهة الممثلة للكواكب السبعة
المعروفة وقتذاك: (الشمس والقمر والزهرة وزحل وعطارد والمشتري والمريخ). والعراقيون هم أول من أبدع ما
يسمى بـ (علم الأبراج) أي الأبراج الاثني عشر المقسمة على أشهر السنة، ابتداء من شهر نيسان وبرجه الحمل،
وهو برج اله الخصب والذكورة(تموز) ويعتبر أول شهر في السنة العراقية، وفيه يخرج تموز من موته(الشتوي) في
أعماق الظلمات في أول الربيع لتخصيب الأرض. وقد صنع العراقيون الأوثان التي تمثل هذه الإله النجمية،
حيث كل اله يمثل طاقة معينة، مثل تموز طاقة الذكورة، وعشتار طاقة الانوثة، وإيل طاقة الخلق العظمى حيث
هو زعيم الآلهة ، للمزيد ينظر : جورج قرم ، تعدد الأديان وأنظمة الحكم ، بيروت ، دار النهار ١٩٨٩ ص ٧٣.

خلق حالة من التخصص لإشباع الحاجات (١) ، فحول المدن في بلاد الرافدين - ومنها اشنونا - كانت دولة دينية واجتماعية وسياسية للأسر والقبائل ، وكان أعضاء الأسر يلتئم شملهم حول المعابد ، فالدولة تلم شعث أولئك الذين يعبدون آلهة واحدة وكان المواطن هو بالتعريف ذاك الذي يشارك في العبادة وكانت هذه المشاركة مصدر حقوقه المدنية والسياسية جميعا ، فان تخلى عن العبادة تخلى عن حقوقه .

(٢)

لقد قدر لمجتمع دولة اشنونا أن يكون واحدا من التجمعات البشرية الكبرى ليحتل موقعا مرموقا في عصره ، وما كان ليصل الى هذه المنزلة لولا الدقة في التنظيم الاجتماعي الذي عرفت به ، والدليل على صحة ما نذهب إليه ، أن التشريع القانوني قد فصل طبقات المجتمع والتي يمكن تصنيفها الى الآتي :-

١- **طبقة العبيد (وردوم) :** ليس من المبالغ في القول بان العبيد كانوا يمثلون طبعا أسبق وجوده على كل الحضارات القديمة ، ومنها حضارة وادي الرافدين ، فقد كان دورهم ضخم وخفي ، ضخم لان الاسترقاق هو شرط الحياة للأسرى وسبايا الحروب ، وخفي ، لأنه لم يكن موضع دراسة وتمحيص ولم يكن يشكل مسألة سياسية بذاته(٣) ، وإنما مسألة اجتماعية بحتة ، إلا في مجتمع دولة اشنونا ، فقد كان معظم العبيد المذكورون في الشرائع البابلية هم أصلا من البلاد الأجنبية (من خارج البلاد) وقد نظمت القوانين شؤونهم وأعطتهم حقوقا لم تعرفها الحضارات اللاحقة(٤) ، فقد كان يمكن للعبد أن يتحرر من عبوديته فالعبودية ليست صفة أبدية يحيى معها الفرد عبدا ويموت عبدا ، بل أنها صفة قد تزول - أي أنها مؤقتة

(١) جورج قزم ، المصدر السابق ، ص ٨٢

(٢) S.Maïen . The Resent Law . Macmillan Press . New York 1976. p49

(٣) جون توشار ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢١

(٤) إن أرسطو يرى أن العبد في دولة المدينة (أثينا) هو تملك آلة حية ، وان كل من لا يستطيعون أن يقدموا لنا غير نتاج أجسامهم وأطرافهم هم من المحكومين بنظام الرق بحكم الطبيعة ومن الأفضل لهم أن يقدموا خدماتهم من أن يتركوا وشانهم ، وبكلمة موجزة فان العبد هو من ضعفت روحه ومن قلت حيلته فأصبح تابعا لغيره إن أرسطو مؤمن كون العبيد ظاهرة طبيعية خارجة عن نطاق السياسة عزاءها الى أحداث فردية ٠٠٠ ينظر

: أرسطو ، السياسة ، ترجمة مصطفى غالب ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٦

- بزوال أو انتهاء الآثار التي دفعتم للعبودية ، كما أن مرتكب الجرم قد يتحول من حر الى عبد وهذه الصفة تنتهي أيضا بإتمامه العقوبة المفروضة عليه (١) ، ففيما يخص الرقيق الذين يمثلون أدنى طبقة في مجتمع اشنونا كانوا يتمتعون ببعض الحقوق والامتيازات أفضل مما كان يتمتع به الرقيق في عدد من المجتمعات القديمة الأخرى ، فمثلا كان لهم حق الظهور أمام المحكمة، وإقامة الدعوى بغير وسيط ((إذا اشترى رجلُ عبداً، أو أمةً مطالباً بدعوى فعلى بائعه أن يتحمل نتيجة الدعوى)) ، وكان لهم الحق في اكتساب حريتهم في ظروف معينة ، وكذلك حق العبيد في الزواج من امرأة حرة ((إذا تزوج عبد القصر، أو عبد الموشكينوم ابنة رجل حر وأنجبت الزوجة أطفالاً. فلا يحق لصاحب العبد أن يدعي بعبودية أبناء ابنة الرجل الحر)) (٢)

٢- الموشكينوم : وهم طبقة العبيد الذين تم عتقهم بأحد طريقتين ، أما من خلال عتقه من قبل سيده وتبنيه له فعملية التبني كانت بمثابة منح الجنسية وهي أسمى أنواع تحرير العبيد ، أو من خلال قيام العبد بعمل جليل يخدم مملكة اشنونا ، وهم ما يعرف بالموالي ومعظمهم من الأجانب ، وكانت لهم حقوق سنها قانون اشنونا ، فقد جاء في المادة (٢٥) ما نصه (إذا وضع احد يده على زوجة رجل من الموالي أو على ابنة كرهينة في بيته وسبب في موتها فهذه قضية قتل نفس) (٣) ، وتشمل طبقة الموشكينوم كل الفقراء والمساكين في اشنونا ، بل يذهب البعض بان تسمية

^١ (فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، بغداد ، مكتبة النهضة ١٩٨٧ ، ص ٩٨)

^٢ (أحلام الطائي ، الاويلم والمشكينم في ضوء قانون حمورابي ، الانترنت : www.slamoon.com)

^٣ (رشيد مجيد الربيعي ، شريعة اشنونا حضارة بين حضارتين في العراق ، بحث مقدم لمؤتمر جامعة ديالى

الموشكينوم تعني المساكين (١) وقد يطلق على عوام الناس (٢) كما إن هناك من يرى بان طبقة الموشكينوم تعني الطبقة الفلاحية (٣) .

إن ما تقدم يثبت اختلاف كبيراً حول طبقة الموشكينوم ومن تشمل ، إذ يشير الباحث درايفر Driver إلى أن مصطلح مشكينم لم يرد في الوثائق القانونية إلا نادراً فقد ذكر في واحدة من العديد من الألواح في مدينة لجش التي يعود تاريخها إلى بدء الألف الثالث قبل الميلاد، ووصف في وثيقة من عيلام على إنهم شهود ، وكذلك وجد المصطلح في بعض النصوص الآشورية والحثية والكنعانية، وبعضها يشير إلى تملك المشكينم للأرض والبيوت وبعض المواد المنقولة ، واختلف تفسير الباحثين لمعنى مشكينم ، فعده عدد من الباحثين نصف أحرار، ويمثلون طبقة مستقلة (٤)

٣- الاويلم أو الأحرار (الموطنين) :

ترجم مصطلح اويلم (awilim) بكلمة (رجل، أو سيد، أو رجل حر، كما تعني شخص ما ، وكلمة اويلم من حيث الاشتقاق (أول) ويقابل الكلمة باللغة السومرية بكلمة (ل) Lu التي تعني: رجل، ومن المحتمل أن الكلمة الاكديّة ترتبط من حيث الاشتقاق بالكلمة العربية (أول) التي تعني الرجل القائد، أو الأول بين أقرانه ، وإذا كان الأمر كذلك فإن مصطلح اويلم يعني: الشخص الذي يحتل مكانه بارزة ، سواء كان رئيس عائلة ، أو رئيس وحدة اقتصادية، ومن هنا فإنها غالباً ما تشير إلى لقب يطلق قبل الإشارة ألي الأسماء ، أو عند توجيه رسائل إلى شخص مهم ما كأن يكون موظفاً ، لذلك فإن هذه اللفظة لم تترجم على أنها (السيد) ترجمة مناسبة، وقد طبقت في العصر البابلي القديم على مختلف الأشخاص مثل الموظفين، والحلاقين،

(١) نقطة التقاء الحضارات القديمة ، شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) : www.alwahda.gov

(٢) www.Almuntada.com

(٣) اللغة الاكديّة ، الانترنت : www.flyrab.com

(٤) أحلام الطائي ، المصدر السابق

والخبازين والمعدنيين، والبستانيين، وحتى العبيد ، وكذلك على النساء بصيغة awiltu. (١)

أن المواطنين الأحرار هم أساس المجتمع الذين يتمتعون بحق المدنية، ويشتركون على الأقل من حيث المبدأ في الحياة السياسية ، ولهم الحق في حضور اجتماع مجالس المدن القضائية (بخرم) التي كانت تضم عادة رجال المدينة من الأحرار (٢) ، ما يميز هذه الطبقة عن الطبقات آفة الذكر هو ما تحتله من مكانة متميزة في الحقوق ، وعلى الرغم من أن المشرعين العراقيين قد أكدوا على العدالة في قوانينهم إلا أنهم بصورة عامة ميزوا بين طبقة الأحرار وطبقة العبيد كما أنهم ميزوا بين الأحرار أنفسهم عندما فرقوا في قوانينهم بين فئة ما يسمى (اويلم)، وبين ما يطلق عليه تسمية (مشكينم)، فقد كانت حقوق الفرد وواجباته ونوع العقوبة المترتبة عليه تختلف باختلاف الفئة التي ينتمي إليها .

وخلاصة القول أن مفهوم مصطلح (الاولم) يصعب حصره في نطاق محدد تبعاً لظروف المجتمع التي كانت قائمة آنذاك منها الاقتصادية، و الاجتماعية والسياسية، ووجود مثل هذه المصطلحات ذات العلاقة بالمجتمع في النصوص المسمارية يدل على وجود تمايز طبقي، وهذا ما أقرته القوانين، ومهما حاول المشرع أن يطبق العدالة في المجتمع، بان يحقق المساواة بين أفراده بمختلف الفئات ولا سيما في جانب الاعتداء والإيذاء إلا أن التمييز الاجتماعي يبقى قائماً، وهذا ما تلميه بالتأكيد طبيعة المجتمع العراقي القديم .

لقد نشأت فكرة الملكية الفردية كملكية الحقل أو المنزل أو العمل مما أدى الى نضوج التخصص في المجتمع والاعتمادية التي باتت الناس بحاجة من خلالها بعضهم لبض ،فضلا عن نضوج قيم مجتمعية وفكرية تقدم خطوات حاسمة في بناء المجتمع سواء داخل القرية أم المدينة أم الدولة ، وتكونت أول نظريات الحق والواجب التي تم

(١) المصدر نفسه

تأطيرها بتشريعات قانونية سمحت لمواطني اشنونا وسكانها من معرفة الأدوار التي يجب أن يقوموا بها لإدامة العيش في هذا المجتمع^(١) .

إن الحديث عن مجتمع اشنونا يتطلب عدم تخطيه دون النظر الى وضع المرأة فيه ، فقد احتلت المرأة مكانة متميزة في المجتمع من خلال ضمان حقوقها القانونية في قانون اشنونا ، إذ تنص المادة (٢٧) من القانون ((إذا أعطى رجل لابنة رجل مهرا ، ولكن رجل آخر خطفها ودخل بها من دون موافقة أبيها وأمها ، فهذه قضية قتل نفس ويجب أن يموت))^(٢) ، فالموافقة على الزواج طبقاً لهذه المادة تتم بين الخاطب ووالد الفتاة وان لم يكن حاضراً فبموافقة والدتها ، ويقوم الخاطب بدفع مهر لإتمام الزواج ، كما أن والد الخاطب أو أهله كانوا يقيمون الولائم وحفل للزفاف بعد إتمام عقد مختوم مع عائلة الفتاة ومخالفة هذه الشروط والالتزامات أو عدم مراعاتها يرتب بطلان الزواج وعدم شرعيته ، الأمر الذي يدل على احترام حقوق المرأة في مجتمع اشنونا ، إذ تم تخصيص المجموعة الرابعة من قانون اشنونا - المواد من ٢٥ الى المادة ٣٦ - لتنظيم الأحوال الشخصية المتعلقة بالزواج وحقوق المرأة والطلاق والمهور وغيرها^(٣) . وقد كفل قانون اشنونا حقوق المرأة التي يتركها زوجها ولها منه أطفال وواجبه في كفالتهم جميعاً^(٤))

لقد كان للأفكار الدينية والعقائدية في بلاد الرافدين دور فاعل في تطور الأحداث السياسية والإدارية ، إذ يمكن القول أن سكان العراق القديم قد اعتقدوا أن المدينة بما فيها من بشر وحيوانات وأراضي كانت ملكاً للآلهة وبشكل خاص ملكاً لإلهها المحلي الرئيس ، وكان لكل دويلة مدينة إله خاص بها يعمل على حمايتها وتنصيب ملوكها ، وبذلك يكون دور الفكر الديني القديم في بلاد الرافدين أحد الروافد التي ساهمت في تجزئة المنطقة وتقسيمها إلى دويلات مدن تتبع كل واحدة منها إلهاً خاصاً أكثر من

(١) حسن الوزني ، المجتمع والنظام السياسي في العراق القديم ، بيروت ، دار التراث ١٩٨٩ ، ص ٣٢

(٢) رشيد مجيد الربيعي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٣٣

(٣) للاطلاع على نص المواد ينظر: رشيد الربيعي ، المصدر السابق

(٤) النان ولد المامي ، تاريخ القانون والمؤسسات الاجتماعية ، نواكشوط ، الدار الجامعية ٢٠١٠ ص ٤٧

مساهمته في عملية توحيد البلاد^(١) ، وهذا بدوره يشكل حافزاً لسكان دويلة المدينة إلى العمل المشترك لإرضاء الآلهة والأيمان بكلمتها التي لها الروحانية^(٢) .

إن المؤسسة المعبدية هي المهيمنة في نسيجها الفكرية، تقودها قوه كهنوتية مؤسسه خطابها الفكري الرابط بين العوالم المرئية والعوالم المغيبة، بين الصورة الأزلية العليا والصورة الأرضية، وبين ما هو سماوي وما هو ارضي) فكان التعقيد هنا واضح وأصبح أكثر قساوة بدليل إن الإطار الاجتماعي بدا لا يفارق الإطار الفردي إلا من الناحية التفاعلية التي هي إضافة نوعيه لحل جميع الإشكالات أي أن التفاعل هو الذي يكتسب الآن كل الصفات وليس الإنسان بمفرد ، ومن هذا التصور لأهمية المعبد ستتطلق فكرة السلطة والتنظيم السياسي .

لقد ترسخت الوحدة الثقافية (طريقة الكتابة واللغة السائدة في مجال القانون) والوحدة اللغوية في جميع المجالات لان اللغات التي سادت في المنطقة كانت من أصل سامي وكانت جذورها في اللغة الأكادية وقد أدى ذلك إلي انتشار الأخيرة ، وقد تعززت الوحدة الثقافية بوحدة قانونية أسهمت في بناء المجتمع بناء موحداً^(٣)

^١ كوردن جايلد. التطور الاجتماعي، ترجمة: لطفي فطيم، القاهرة، ١٩٦٦، ص، ١٨٥؛ وكذلك ينظر: ارنولد توينبي. تاريخ البشرية، ترجمة: نقولا زيادة، بيروت، ١٩٨١، ص، ٦٤.

^٤ المصدر نفسه ، ص ٦٤

^٣ (النان ولد المامي ، المصدر السابق ، ص ٢٥

المبحث الثاني التنظيم السياسي لمملكة اشنونا

إن ظهور مدينة اشنونا بعد أن كانت قرية زراعية ظاهره في العصر الحجري الحديث، هذه المدينة هي نتاج تاريخي مشروط إنسانيا كونه تجاوز التعقيدات الثقافية والاجتماعية، فالإنسان اقتضى بالنزوع نحو الخروج عن الاجتماعي الى التنظيم أكثر، الأمر الذي حدا به أن يصل الى مرتكز بحث إنساني داخل مدينته، ولكون الإنسان الرافديني أينما كان لا يستطيع التجرد من إنسانيته، فكان يحتاج الى تنظيم لحل التعقد لا يهتم سواء كان فكري أو ثقافي أو سياسي ، وبهذا تركبت العوالم المعقدة لدى الإنسان الرافديني، سواء كان فرداً أو جماعة فكل حاله لها قانوناً خاصاً بها يقوم على شروط موضوعيه وقوانين ثابتة ومتفردة تتحكم فيها، وهذه القوانين تشكلت بتلك المدينة من طبيعة العلاقة الداخلية التي تنشأ في داخله، ، فالمدينة لها خلفيه تاريخية جعلنا في البحث مضطرون أن نعوض حلول التعقيدات بسعي موازن للموقف الواعي الذي يفضل التعبيرات الممكنة عن محتوى مجهول، وهو الكون ومن ثم الكشف عن نفسه الواعية من خلال حلول الرموز التي لا تقبل التحميد أبدا بل تقوم على تداعيات تاريخ المدينة نفسها والتداعيات الشخصية للإفراد التي تكون ربما ناقصة وعندئذ لا بد من (القيام بالتوسيع الميثولوجي والثقافي) الذي ينشر غسيل التعقيد على حبل القانون. والتي تظل النصوص المسماة مصدرنا الأول لمعرفة وتتبع القانون في بلاد وادي الرافدين المتمثل بالقوانين المدونة والتي تم الكشف عنها وبعمقها الزمني .

فالدولة توجد حيث توجد تفرقة بين الحكام والمحكومين ، أي حيث تقوم سلطة سياسية تحكم الجماعة ، في حين يرى البعض بان الدولة لا توجد إلا حيث تكون الجماعة السياسية قد وصلت الى درجة من التنظيم السياسي ، يجعل لها وجود مستقلا الأمر الذي لا يتحقق إلا بعد وصول الدولة الى درجة معينة من المدنية (١)

(١) ابراهيم عبدالعزيز شيحا ، مبادئ الانظمة السياسية، بيروت ، الدار الجامعية ١٩٨٢، ص ١٤

، فالدولة تجمع بشري وشروطها أن يتوافر لها عنصر التنظيم السياسي ، بما يعنيه ،
بالأساس من ضرورة وجود سلطة سياسية تؤدي وظائف الدولة الداخلية والخارجية ،
وتكون مسئولة أمام الجماعات الأخرى عن كافة الشؤون التي تتعلق بالإقليم
والشعب .

إن نشوء الحضارة في بلاد الرافدين قد حدث نتيجة التفاعل بين الإنسان والبيئة
الطبيعية المحيطة به أي انه الصراع بين الإنسان وبيئته التي تفرض عليه تحدٍ لحل
القضايا والمشاكل التي تعيقه ويكون نوع الاستجابة التي تصدر عنه والوسائل التي
يتبعها للتغلب على مشاكل البيئة والسيطرة عليها واستغلالها واستعداده الدائم لذلك
يؤدي إلى تطور الحضارة (١) والسبب الأخر يعود إلى ما يتطلب ذلك من تنظيم
شؤون الري والإدارة والتجارة التي كانت العامل الأخر لازدهار حضارة وادي
الرافدين (٢)

ومما لا شك فيه إن تنظيم العمل والجهود أبان نمو الحضارات يتطلب إدارة وقيادة
فكان أحزم الأفراد وأبرزهم من حيث القوة والقابليات أول الحكام عندما نشأت فيها
أولى أنظمة الحكم وإن معرفتنا الكاملة بنظام الحكم في بلاد الرافدين تبدأ منذ عصور
فجر السلالات ولكن من المؤكد إن جذور هذا النظام تمتد إلى العصور التي تسمى
عصور ما قبل التاريخ لكي تكون بهذا النضج السياسي في عصور فجر
السلالات (٣) ، فقد عرفت بلاد ما بين النهرين دول - المدن بشكل كبير وواسع ، إذ
انتشرت في وسط وجنوب وشمال البلاد ، كان من بينها أشنونا ، التي لم تكن معزولة
في تأثيرها وتأثيرها بالنظام السياسي السائد آنذاك .

إن مملكة أشنونا هي إحدى الممالك الأمورية تأسست قبل سقوط سلالة أور الثالثة
٢١١٢ - ٢٠٠٤ ق - م في منطقة تعرف بمنطقة ديبالي ، وهي الرقعة الجغرافية التي
تمتد بين نهر دجلة غرب وجبال زاكروس شرق حيث يمر بجانبها نهر ديبالي والذي

(٢) صالح احمد العلي. محاضرات في تاريخ العرب، ج ١، ط١، بغداد، ١٩٥٥، ص، ٨٠ - ٨١.

(٣) جيمس هنري . انتصار الحضارات، ترجمة: أحمد فخري، القاهرة، ١٩٦٢، ص، ١٥٨.

(٤) علي، فاضل عبد الواحد، و سليمان، عامر. عادات وتقاليد الشعوب القديمة، بغداد، ١٩٧٩، ص، ٤٤.

عرف في المصادر المسمارية باسم توران أو تورنات (١) وسهلت هذه المسالك عملية تحرك السكان مما أدى إلى ظهور علاقات تجارية وحضارية بين مراكز هذه المنطقة كأشنونا تل أسمر ونريبتوم (أشجالي) وتوتوب (خفاجي) وشادبوم (تل حرم) وميتوران (تليّ السيب حداد) وغيرها من جهة وبين المراكز الحضارية سواء في بلاد الرافدين أو خارجها من الشمال والشرق كعيلام من جهة أخرى ، وورد أسم أشنونا في عدد من النصوص المسمارية من داخل وخارج منطقة ديبالي ، كما أطلق اسم أشنونا على المملكة نفسها وعلى العاصمة (٢) .

لقد تعاقب على حكم اشنونا منذ نشأتها حكام كثر ، فقد أصبح اتوريا ٢٠٢٦ - ٢٠١٨ ق - م الذي حمل أسم جزري أول من حكم أشنونا بعد استقلالها ، خلفه ولده شو - إيليا ٢٠١٧ - ٢٠١١ ق - م . أستبدل شو اللغة السومرية باللغة الاكدية في مدوناته الرسمية كافة ، ثم تربع على عرش أشنونا نور - آخوم ٢٠١٠ - ٢٠٠٢ ق - م ، ومن بعده كيري - كيري الذي حمل اسم عيلامي وكان حليفا لعيلام ، ثم تمت إعادة أخوه نور - آخوم إلى عرش أشنونا بمساعدة إشبلي - إيرا حاكم مملكة إيسن ، ثم تولى أخوه كيري - كيري ، ثم اعتلى عرش مملكة أشنونا بعد ذلك الملك بيلااما ابن كيري - كيري ، وتشير الكتابات التي عثر عليها في الطبقة المحترقة من قصر بيلااما بوجود علاقة حسنة بين أشنونا وإيسن . بدأ شأن مملكة أشنونا بالرقى في زمن هذا الملك والذي أخذ يعمل على إخماد الثورة التي أججتها القبائل الامورية بشن الحرب عليها لتأديبها ، ثم عقد معها الصلح على أن تعلن ولاءها لأشنونا ، ولم يقتصر نشاط هذا الملك على الجوانب السياسية والعسكرية بل تعداه إلى تشييد مدينة جديدة أسماها توتوب - خفاجي ومدينة تابي تشباك (٣) فضلا عن أن اغلب المصادر تشير الى وضع هذا الحاكم لقانون اشنونا .

إن ما تقدم يمثل مراجعة تاريخية لمعرفة مملكة اشنونا تخدمنا في بيان طبيعة نظامها السياسي وشرعيته ، فضلا عن نظامها الإداري ، فمملكة اشنونا - شأنها شأن دول

(١) الجغرافية التاريخية لحوض سد حمرين . مجلة سومر العدد ٣٥ لسنة ١٩٧٩ ، ص ٢٣

(٢) عدنان عبدالرحمن ، مملكة اشنونا والبابليون والآشوريون ، الانترنت : www.alhewar.net

(٣) المصدر نفسه

المدن في العصر القديم - استمد نظامها السياسي شرعيته من النظرية الثيوقراطية (الدينية) ، إذ يذهب أصحاب هذه النظرية في أصل الشرعية التي يكتسبها نظام الحكم مذهباً دينياً يقوم على رد كل الظواهر الاجتماعية والسياسية والقانونية الى الإله ، فالدولة نظام قدسي فرضه الله لتحقيق الغاية من الاجتماع البشري ، وينتهي أصحابها الى تقديس السلطة كونها من الإله الذي تأتي منه الأحكام (١) ، فشرعية الحاكم وفقاً لهذه النظرية قد مرت بطورين : الأول: ادعائه الإلهوية وبذلك يكون أصل السلطة مقدس ، والثاني أن الحاكم يحكم بتفويض من الالهة ، إذ تختار الالهة الحاكم وتودعه السلطة ومن ثم فهو يحكم بمقتضى الحق الإلهي المباشر أو ما عرف بالتفويض ، ولعل هذه النظرية بطورها الثاني كانت تعمل لإكساب حكام اشنونا شرعية سلطتهم على الشعب فيها ، وهذا النظام يأتي متوافقاً مع التطور للحياة الاقتصادية والاجتماعية ، إذ كان اللقب الذي يستخدم للتعريف بالحاكم في دول المدن السومرية وسارت اشنونا عليه هو (انسي) وتعني النائب أو الوكيل عن المعبود ، وبذلك جمع بين السلطتين الدينية والدنيوية ، وكان يساعده في إدارة الحكم مؤسسة إدارية متكاملة تبدأ بمستشاره الخاص ووزيره الأعظم والمسمى (سكال-ماخ) والحاكم العسكري الذي يقود الجيوش والمدعو (شكنا) وحكام المدن والأقاليم والكهنة والقضاة ثم كبار الموظفين والموكلين على أملاك القصر والمعبد والحراس وعشرات الموظفين الصغار ، وهذه الفئات جميعها من المواطنين الأحرار ، فضلاً عن العبيد والخدم (٢)

لقد فرض تطور الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية أن يعهد الحاكم بالسلطة الدينية الى الكهنة شريطة ارتباطهم المباشر به ، ويعهد إدارة المدن والقرى المرتبطة بالمملكة الى حكام يختارهم ويمنحهم التفويض ، إذ أن توسع مملكة اشنونا بلغ حداً لا يمكن قيادته من المركز أو العاصمة ، فقد أثبتت التنقيبات التي أجريت في المنطقة أن هناك خمسة مدن كبيرة ظهرت الى الشرق والجنوب الشرقي من نل اسمر ، مع خمس مدن اصغر إضافة الى (٣١) مستوطنة اصغر منها مما يمكن

^١ طعيمة الجرف ، نظرية الدولة ، القاهرة ، مطبعة الجامعة ١٩٧٨ ، ص ٩٩

^٢ (حسن الوزني ، مصدر سبق ذكره

اعتبارها قرى ، إذ تختلف أهمية المدن سياسيا ووظيفيا ، وتتراوح مساحة المدن الكبيرة من ١٠-٣٣ هكتارا وكانت مدن مسورة^(١) إن ما تقدم يوضح أن النظام الإداري الذي سارت عليه مملكة اشنونا هو النظام اللامركزي الذي يستخدم في إدارة الدول البسيطة^(٢) ، أما أهم المؤسسات السياسية التي عرفتها اشنونا فيمكن تقسيمها بالاتي :-

١- الحاكم : ويمثل أعلا سلطة ويدين الجميع إليه بالخضوع فهو المفوض من الالهة لقيادة شعبه ، وهو قائد الجيوش ، وراعي كل الاحتفالات الدينية ، ويستلم السلطة بالوراثة أو التفويض من قبل الحاكم السابق الذي قد يعهد بقيادة المملكة الى احد أخوته ،فكان انتقال السلطة من حاكم لآخر في مملكة اشنونا يتم بأحد هاتين الطريقتين - كما أثبتت الرقم التي تم العثور عليها - ، ومن مهامه تعيين الكهنة والولاة ومدراء البلدية ويكونون مسئولون أمامه بشكل مباشر وله الحق وحده في عزلهم^(٣)

٢- الكهنة : انحسرت السلطة في دول المدن التي نشأت في وادي الرافدين بادئ الأمر بالكهنة ، إذ كانوا يمثلون سدنة المعابد الذين تسنى لهم حكم المدن بالنيابة عن الالهة لما يتسمون به من طاقات كالتنبؤ بالكوارث وقدرتهم على شفاء المرضى والتكهن بالمقبل من المعارك والحوادث ، ولكن اتساع المدن استدعى تعيين من ينوب عنهم ، إذ انتفت المباركة التي يخصصون بها الحكام الإداريون وتحولت الى مباركة صورية بعد أن تحول الحكم الى حكم وراثي ، وبعد سن القوانين في مملكة اشنونا من قبل الحاكم واحد من الطرق للحد من سطوتهم على شعب المملكة وإنهاء سلطاتهم بعد أن اتضحت سلبياتهم في التلاعب بالأموال والممتلكات وشؤون الناس ، فكانت القوانين وسيلة لتنظيم

^(١) تحسين حميد مجيد ، دراسة في تاريخ ديبالى - الجزء الأول ، مطبعة جامعة ديبالى ٢٠١٠ ، ص ص ٦٦ -

^(٢) إن الدولة البسيطة تعني كون الدولة ذات سيادة موحدة غير مجزأة ولها حاكم واحد ونظام واحد وتدير شؤونها الداخلية والخارجية دون أن تشاركها في ذلك حكومة أو هيئة أخرى ، للمزيد ينظر :

طعيمة الجرف ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٥

^(٣) النان ولد المامي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٥

الحياة بعيدا عن تدخل الكهنة^(١) وكان دورهم السياسي محصور في تقديم المشورة ومباركة الحاكم ويكون مقرهم المعبد ، فقد عثر على معبد في تل اسمر يعود تاريخه الى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد مكرسا لعبادة الإله (أبو) وعثر على اثني عشر تمثالا فيه ، ووجد معبد سمي بالمعبد المربع ومعبد سمي بمعبد ذي المزار الواحد ، والمعبد البيضوي في تل خفاجة ، فضلا عن المعابد التي تم العثور عليها في تل أجرب^(٢) .

٣- مجلس المسنين والشيوخ : ويتألف من رؤساء وزعماء وأرياب الأمر والأسر الموجودة في المدينة ويجتمع للنظر في القضايا التي تهم المملكة ، وكان هناك مجالس صغرى مماثلة في المدن التابعة للملكة ، وهي تقم المشورة السياسية والعسكرية والاقتصادية للحاكم نظرا لما يتمتعون به من خبرة .

٤- مجلس الشباب : الذي يضم المواطنين القادرين على حمل السلاح والدفاع عن الوطن وهم المصدر الوحيد لترشيح قادة الجيوش ومدراء الدوائر الخدمية ، ولحمايتهم ومنع استغلالهم للناس فقد قنن عملهم ، إذ نصت المادة (٥٠) من قانون اشنونا ((إذا قبض رئيس المدينة أو مراقب القوات أو أي موظف آخر على عبد آبق أو امة أو ثور مفقود يعود للقصر أو الى مولى ولم يسلمه في الحال الى مدينة اشنونا ، بل احتفظ فيه في بيته ، وعند مضي سبعة أيام من الشهر والعبد لم يسلم بعد فان القصر يعتبره - أي الموظف - سارقا))^(٣)

لقد وضع بعض الباحثين أن طريقة الحكم عن طريق المجالس (المسنين والشباب) تمثل الديمقراطية البدائية لان هذه المجالس تتكون من جميع الشرائح الاجتماعية باستثناء طبقة العبيد ، وبمثابة مجالس الشورى التي تحيط الحاكم

www.alhewar.net

(١) علي دنيف ، الحياة السياسية في العراق القديم ، الانترنت :

(٢) للمزيد ينظر : طه باقر ، ، واخزون ، تاريخ العراق القديم ، الجزء الأول ، بغداد ، مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٠ ص ٢٢٦ وما بعدها

(٣) رشيد مجيد الربيعي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٣٦

بسير الأمور في الدولة وتساعدته في اتخاذ القرار^(١) ، إذ يوضح العالم جاكسون بان السلطة العليا في أقدام المدن كانت بيد هذين المجلسين ، إذ يضم المجلس الثاني جميع المواطنين بما في ذلك النساء ، وكان المجلسان يجتمعان سوية لاتخاذ القرارات الضرورية في الحالات الطارئة والظروف التي تحتاج الى قرار حاسم لتنظيم الحياة في دول المدن ، وكان النقاش يستمر حتى يتم التوصل الى قرار نهائي وبالإجماع ويعلن القرار من قبل مجموعة صغيرة تدعى باسم مشرعي القوانين ، ويقر جاكسون بان هذين المجلسين مقيدان لسلطة الحاكم ، فهو يرجع إليهما في عقد المعاهدات وإعلان الحرب^(٢) أما عن طبيعة العلاقات الدولية التي تربط مملكة اشنونا بالممالك الأخرى فقد كانت لا تعرف الثبات وتتأرجح بين السلم والحرب ، فقد عقدت حلف مع مملكة عيلام ، في سبيل التوسع لذلك فان اشنونا كانت تصغر مساحتها وتكبر حسب مواطن القوة والضعف ، الى أن تم القضاء عليها من قبل الملك حمورابي الذي ضمها الى مملكته .

^(١) علي نايف ، المصدر السابق

^(٢) ابراهيم عبدالعزيز شيحا ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٤

الخاتمة

إن أهم ما تميزت به الحضارات القديمة أنظمتها السياسية التي كانت سائدة فيها وان دراسة تطور هذه الأنظمة وخصوصا التي مرت في العراق القديم منذ نشأتها وحتى نضوجها ضمن الأطر المتعارف عليها تاريخيا تطلبت دراسة وضع الإنسان في فكره آنذاك ، فقد بدء النظام السياسي مع النضوج الفكري الذي تقدم خطوات فانتج قوانين جعلت من المجتمع يرقى رقيا حضاريا متميزا عن حالة البدائية التي كان يعيشها ، وبالرغم من التعقيم الذي ساد على الفكر السياسي للعراق القديم فان ما يمكن إثباته وبما لا يقبل الشك بأنه مثل سابقة على الفكر اليوناني الذي دائما ما يذكر بأنه السباق في وضع أسس علم السياسة والمفاهيم التي سادت في العصور الوسطى والحديثة .

وما يمكن استنتاجه من البحث في التنظيم السياسي لمملكة اشنونا الآتي :-

- ١ - استقلال دول المدن الواحدة عن الأخرى في نظامها السياسي المتوافق مع التطور الحاصل في حياتها الاقتصادية والاجتماعية .
- ٢ - مثلت الآلهة مصدر للسلطة في اشنونا ، وقد انفردت كل مدينة بمعابدها وآلهتها التي تعبد .
- ٣ - كان نظام الحكم قائم على الحكم الملكي الوراثي .
- ٤ - اتبعت مملكة اشنونا نظام اللامركزية الإدارية في إدارة شؤونها .
- ٥ - اتسمت علاقاتها الدولية بالتحالفات وعقد الاتفاقات ، وعاشت فترات من السلم والحرب .
- ٦ - اتسمت حياتها الاجتماعية بالتقسيم الطبقي الذي كان له دور في الوظائف العامة .

مصادر البحث

- ١- ابراهيم عبدالعزيز شيحا ،مبادئ الانظمة السياسية، بيروت ، الدار الجامعية ١٩٨٢
- ٢- أرسطو ، السياسة ، ترجمة مصطفى غالب ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٦
- ٣- ارنولد توينبي. تاريخ البشرية، ترجمة: نقولا زيادة، بيروت، ١٩٨١٣-
- ٤- النان ولد المامي ، تاريخ القانون والمؤسسات الاجتماعية ، نواكشوط ، الدار الجامعية ٢٠١٠
- ٤- تحسين حميد مجيد ، دراسة في تاريخ ديالى - الجزء الأول ، مطبعة جامعة ديالى ٢٠١٠
- ٥-جان توشار ، وآخرون ، تاريخ الفكر السياسي ، بيروت ، الدار العالمية للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٥
- ٦-جورج قرم ، تعدد الأديان وأنظمة الحكم ، بيروت ، دار النهار ١٩٨٩
- ٧- جيمس هنري . انتصار الحضارات، ترجمة: أحمد فخري، القاهرة، ١٩٦٢٥-
- ٨- حسن الوزني ، المجتمع والنظام السياسي في العراق القديم ، بيروت ، دار التراث ١٩٨٩
- ٩- رشيد مجيد الربيعي ، شريعة اشنونا حضارة بين حضارتين في العراق ، بحث مقدم لمؤتمر جامعة ديالى ١٣-١٤ كانون الأول ٢٠٠٩ ،
- ١٠- صالح احمد العلي. محاضرات في تاريخ العرب، ج١، ط١، بغداد، ١٩٥٥،
- ١١- طه باقر ،، واخرون ، تاريخ العراق القديم ، الجزء الأول ، بغداد ، مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٠
- ١٢- فاضل عبد الواحد، و سليمان عامر. عادات وتقاليد الشعوب القديمة، بغداد، ١٩٧٩
- ١٣- فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، بغداد ، مكتبة النهضة ١٩٨٧
- ١٤- كوردين جايلد. التطور الاجتماعي، ترجمة: لطفي فطيم، القاهرة، ١٩٦٦

الانترنت

- ١-أحلام الطائي ،الاوليم والمشكينم في ضوء قانون حمورابي ، الانترنت www.slamoon.com
- ٢- نقطة التقاء الحضارات القديمة ، شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) www.alwahda.gov
- ٣- اللغة الاكديية ، الانترنت : www.flyrab.com
- ٤- عدنان عبدالرحمن ، مملكة اشنونا والبابليون والآشوريون ، الانترنت www.alhewar.net

www.alhewar.net

٥- علي دنيف ، الحياة السياسية في العراق القديم ، الانترنت :